

مناقشة

الطلبة العرب والمجتمع العربي

بقلم: نبيل مهاني

لا أدري ما هو الشعور الذي يتولد عند قارئ بحث الاستناد بسام طيبي ، عن مشكلات الطلبة العرب في ألمانيا الغربية ، بعيد عن هذه القضايا وعن جوها ؟ لقد قرأت المقال باهتمام ، ومنذ الوهلة الأولى كان يتملكني شعور مزدوج .. شيء أشبه بالحنس منه بالرأي الكامل الواضح .. ولكن عند معاودتي القراءة كان هذا الشعور يتخذ طريقه أو طريقه الواضحين : سلامة المنطلقات وحسن النية وطيب الإرادة التي انطلق منها الأستاذ الطيبي ، من ناحية ، ورداءة التطوير والبحث بشكل عام ، من ناحية أخرى .

والشيء الذي اعتمده الباحث سببا لصحة البحث « رغم الطبيعة الفجة والتبسيطية » (1) - والتي هي هنا بسيطة وليست تبسيطية - وأعني به الارتكاز « على مراقبة شخصية دامت سنوات عديدة » (2) ، إنما هو بالاحرى سبب رداءة البحث ، ليس من حيث هو منطلق - أكرر - وإنما من حيث هو تطوير . فيحت أراد له صاحبه أن يكون على مستوى معين من « البحث العلمي » و « الالتزام » لا يمكنه أن يكون بهذا الشكل ، حتى لو أن بعض الأسباب التي تمنع كمال البحث - والتي أوردتها الاخ الطيبي - صحيحة ، وبعضها الآخر غير صحيح . فمن الصحيح أن « الأبحاث التجريبية حول وضع الطلبة العرب في ألمانيا » معدومة ، ولكن من غير الصحيح انعدام « الإحصائيات الضرورية » ، فقد كان يكفي اللجوء الى وزارات المعارف أو الى الملحقيات الثقافية .. وبشيء كثير من الإلحاح كان بالإمكان الحصول على مثل تلك الإحصائيات .

1 - وهناك نواح إيجابية وصحيحة في البحث - وأهمها طرحه في حد ذاته ، بشكل أو بآخر - وساقتمر هنا على إيراد بعض ملاحظاتي ، التي رأيتها ، حول البحث من حيث هو أسلوب في البحث ومن حيث هو محتوى ومن حيث هو فكرة :

أ - وكثير من النواحي السلبية لا تقتصر على بحث الاخ الطيبي وإنما تتعداه الى بعض من طرق تفكيرنا المعاصرة ، ألا وهي التفكير بالجميل الجاهزة والتعابير العامة ، بحيث ينقلب الكثير من جوانب البحث الى نوع من الحداق الاصطناعية التي تلصق فوق ترابها - أو رملها ! - مربعات الزرع الأخضر . وهكذا أصبحت بعض مقاطع البحث - هنا - عسيرة بل مستحيلة الفهم إذا ما تجاوزنا ظاهرية فهمنا المعتادة لتعابيرها . وقد كنت أود إيراد الأمثلة واحدا اثر الآخر ، لكن رأيت ان مقالتي هذا سيطول ، ولذلك سأكتفي بمثال واحد : يقول الاخ الطيبي : « فرغم عدم تحرر المرأة في أوروبا كليا ، فإن وضعها

(1 ، 2) وكل الجميل الموضوعية بين هلايين مأخوذة عن بحث الاستناد الطيبي عن وضع الطلبة العرب في ألمانيا الغربية والمنشور في زاوية - النشاط الثقافي في الوطن العربي - في العدد الثامن من مجلة « الآداب » لهذا العام .

لا يمكن مقارنته مع وضع المرأة العربية المكبلة بالأغلال » . فلا أدري ماذا يقصد بعدم تحرر المرأة في أوروبا كليا ، وماذا يعني بتحرر المرأة وبكليا ؟ ثم ما هو وضع المرأة العربية المكبلة بالأغلال ؟ طبعاً ، ان فهمها شكليا يمكن أن تقوم له قائمة هنا ، ولكن ربط البحث ببعضه والاسباب بالنتائج - في مقاله - يبين مدى تجزئة فهم الاحداث والظواهر الاجتماعية ، وكيفية التعبير عن ذلك الفهم بتعابير مفروضة (3) .

ب - ومن الطبيعي أن تجر طريقة مماثلة في التفكير الى نوع من - اذا جازت التسمية - (العرض - من خلال ل) البعيد عن (العرض) السليم وهو (التحليل ل) الموضوعي أو (التحليل - من خلال ل) الايديولوجي .

ج - ومن الطبيعي ايضا أن تكون مظاهر طريقة مماثلة عبارة عن تطورات لغوية لبارقة فكرية ، (ولا يمكن فهم البارقة الفكرية هنا كجذر للتفكير) والسليم هو التطوير الفكري لبارقة فكرية ، وليس جرحها ونفخها وطرحها لغويا ، بحيث تمكن قراءتها دون أن يكون بالإمكان فهمها أو صمودها أمام تحليل فكري .

ولا أريد تحميل الامور أكثر مما تحتمل ، ولكن مقال الاخ الطيبي كان مناسبة جيدة حركتني لبدء ملاحظات - ولو بشكل ملاحظات - كانت تعاونني دائما . ان السهولة واللفظية والفراغ والفقر - فهي نهاية الامور - في الافكار إنما تطبع بعضا من طرق تفكيرنا وبحسنا والذي يستند - غالبا - الى آراء عبارة أكثر من استناده الى فكرة محددة مسبقا أو الى ايديولوجية ثابتة (والتي غالبا - حتى في حال وجودها - تكون متوضعة في طبقة عالية من تفكيرنا أبعد من أن ينحدر منها تفكيرنا ذاته) .

2 - أ - انطلاقا من رأي الاخ الطيبي نفسه ، أكرر معه بأن « مشكلات الطلبة العرب في الخارج مشكلات اجتماعية لها أسسها في المجتمع العربي - التقليدي ؟ - وايديولوجيته ؟ - المتخلفة ... » . ان موضوع الطلبة العرب في خارج أو داخل الوطن إنما هو الموضوع نفسه ، وما يختلف إنما هي المواجهات التي تصادف هذا الموضوع . ودراسة وضعهم بحد ذاته شيء غير مفيد وغير مجد ، فضلا عن انه غير ممكن علميا ، لان الطلبة العرب في الخارج لا يشكلون مجتمعاً معيناً او كتلة معينة او جسماً معيناً له علاقات واضحة محددة مع جسم أو مجتمع أو كتلة أخرى ، كما أنهم - على انهم طلبة عرب - ليس لهم مشاكل خاصة الى ذلك الحد الذي قد نتصوره . وأي دراسة من هذا النوع يمكنها أن تقام ، ولكن اما على شكل عرض وتوضيحات علمية سليمة ، واما من أجل هدف مختلف جدا وهو - برأيي - دراسة ومعرفة ذاتنا عبر اكتشافها من جديد في تفاعلها أو - على الأقل - النقائما مع الآخرين ، أي - وبعبارة أخرى - رؤية أنفسنا موضوعياً ومن فوق أنفسنا : شيء من الصعب القيام به من الداخل . ولذلك فإن طرح الموضوع بذلك الشكل إنما هو خاطئ ،

(3) والقضية هنا معقدة وتحتاج لبحث آخر كامل ، ولذلك سأحاول شرحها بقدر الامكان الآن : انه عندما قال « عدم تحرر المرأة في أوروبا كليا » فإنه قد نقل تعبيراً شائماً عندنا وطبقه على ظاهرة اجتماعية مختلفة في ألمانيا دون أن يكون هناك رابط حقيقي بين القضيتين ، والرابط الذي بدأ له إنما هو بارقة أحجمها من أجل توضيح وتضخيم فكرة أخرى تالية وهي « المرأة العربية المكبلية بالأغلال » ، وهنا أتى فهم جزئي شكلي آخر للظواهر الاجتماعية : انه - دون وعي - نفى طرح حافظ ابراهيم - مثلاً - لقضية المرأة في مجتمعنا ، والاسوأ من ذلك ان فهم « الأغلال » إنما هو عبر قاسم أمين - مثلاً - وليس عبر حالة اجتماعية معاصرة ومتكاملة مختلفة تمام الاختلاف .

والاخ الطيبي قد لاحظ هذا في نقاط عديدة من بحثه وقالها بصراحة رغم معاودته البحث بذات الطريقة السابقة .

ب - ان الطلبة - حتى داخل الوطن - ليس لهم قضايا أو مشاكل جذرية تجعلهم نوعا من طبقة جديدة . انهم فئة اجتماعية لهم احتياجات وقضايا ثانوية ، أما قضاياهم الجذرية فترتبط بذات البنية الاجتماعية .

وإذا أصرنا على وجود مشاكل خاصة بالطلبة العرب في الخارج ، فهي مشاكل ثانوية وذات طابع اقليمي بحت ، وأصولها توجد في وزارات المعارف العربية . فيجب اعادة النظر بنظام البعثات والإشراف التعليمي على الطلبة الأحرار وعلى دراستهم ونوعيتها وسيرها . الخ (٤)

ج - أما التقسيم الذي قام به الاخ الطيبي ، فلا أدري الى أي مدى يمكن اعتباره صحيحا . اننا إذا سرتنا حسب هذا التقسيم فسندجد أنفسنا أمام نوعية مستقلة لكل طالب عربي . فلا أدري لماذا لا يمكن أن يكون الطالب الذي أتى لالمانيا الغربية لأنه حصل علامات قليلة في شهادة الدراسة الثانوية هو نفسه الذي أتى لالمانيا الغربية بسبب « توفر العمل فيها » أو لأن عائلته البرجوازية تريد له « سمعة جيدة » أو لأنه « يحب المغامرة » . فهذا التقسيم قد يقبل على انه أسباب دافعة ، كما أورد ذلك الاخ الطيبي نفسه ، ولكن لا يمكنه أن يكون نوعا من التقسيم الى فئات مختلفة .

د - ان العديد منا يذهبون لمتابعة دراستهم في أوروبا وفي خاطرهم فكرة مسبقة عن وضع الطلبة العرب الفاسد هناك ، وتمضي الايام الأولى فيجدون أنفسهم في نفس الوضع الذي وصل اليه أسلافهم . وقليلون هم الذين يستطيعون - ولأسباب خاصة جدا - التغلب أو تجاوز الأسباب التي دفعت غيرهم لما دفعته . ولكن قبل أن أبدا بتناول هذه النقطة ، يجب أن أوضح أمرا هاما ، وهو انه لا يجب علينا معالجة « قضية الجنس » من خلال طيبة آمالنا من أجل وضع أفضل للطلبة العرب في الخارج ، أو من خلال ردة فعلنا (الصوفية) على وضعهم ذلك ، ولكن من الضروري معالجة قضية الجنس على انها قضية طبيعية . ولا أدري لماذا يجب على الطالب العربي أو غيره أن (يتصوف) أو يعاني الحرمان حتى في مجتمع الكبت فيه جريمة ذاتية واجتماعية . كما لا أدري لماذا يجب حتى أن نأمل بأن يكون الطلبة العرب (كالطلاب الملائكة) ، وان كان هذا ليس مدعاة لتقبل وضعهم (الشيطاني) . و « قضية الجنس » لا تقتصر - طبعا - على الطلبة العرب وحدهم ، فهناك الكثيرون حتى من القادمين من (دول غير متأخرة) ممن يتكبدون على الجنس دون غيره ، كما ان هناك العديد من الطلبة العرب من الذين يعطون الامور حقها ويعرفون كيف يتدبرون أمور حاجاتهم الروحية والجسدية ومتطلباتهم العلمية . وعلى كل فالقضية لا تحل بالبحث وهي تتعلق بوضع حضاري كامل تكمن جذوره في مجتمعاتنا ذاتة . وبعدها لا حاجة للقول بأن « الطلبة العرب في الخارج يسيئون فهم تحرر المرأة في أوروبا كليا » وكأننا نتكلم عن أساءة فهم تحرر المرأة في الصعيد أو في أحد احياء دمشق المحافظة . كما انه يجب التوضيح بأن « المرأة الأوروبية المتحررة » تريد مزيدا من (أساءة الفهم) ذلك ، لأنه وحسب رأي الاخ الطيبي نفسه « شيء جديد يبعد الملل ، الذي يسود المجتمعات الأوروبية » . وهكذا نرى الى أي حد يوقعنا التفكير بالجمل الجاهزة في التناقض.

هـ - ثم وعبر عرض بدائي بريء - وليعذرني الاخ الطيبي على التعبير والذي أردت إيراد معناه لا مدلوله (الجاهز) - نقرا « ولكن نجد فقط عددا قليلا منهم - الطلبة العرب - يتفاعلون مع الفكر الإنساني الذي أتى به عصر التنوير من ليسنغ الى فولتير

وهيغل وفختيه .. الخ .. » . فمسكين هذا الطالب العربي - وأتكلم عن الطالب المتوسط بشكل عام - الذي يخرج من « مجتمع متخلف منحل » ويعاني جميع الأمراض النفسية والاجتماعية ، ويدرس في مدارس بحاجة « لتفسير شامل » لنظامها بسبب تخلفه ، يدخل مجتمعا مختلفا كلية عن مجتمعه ، فيه جميع الإغراءات .. الخ .. وهو أي ليحصل شهادة ما في الهندسة أو الكيمياء .. أو .. الخ .. فما أدري ماذا عليه أن يفعل ويفعل ؟

ثم ان التفاعل مع حضارة ما لا يأتي عن طريق دراستها فقط وانما عن طريق عيشها . وأظن ان الاخ الطيبي قد وجد - كما وجدت أنا - الكثير من الغربيين الذين لا يعرفون الكثير عن فولتير وهيغل وفخته . الخ .. فلا أدري لماذا تطلب من هذا الطالب المتأخر المسكين الذي يدرس فرعا علميا - غالبا - أن يعرف مسرحيات موليير وأشعار غوته وأفكار كروتشه ، في الوقت الذي لا يعرف فيه - ولا يجب أن يعرف كثيرا - ابن خلدون أو ابن رشد والغزالي (٥) ؟ هذا من ناحية الدراسة ، أما من ناحية التفاعل - فإلى جانب ما قلت - لا أدري كيف يمكن للطالب العربي أن يتفاعل « مع عصر التنوير » - يمكنه أن يعرف ، أن يدرس ، أن يلتقي - أو عصر النهضة ، في الوقت الذي لا يمكن فيه للطالب الأوروبي - أو غير الطالب - أن يتفاعل مع عصر مر به شعبه ذاته ؟ وعلى كل فانا متأكد بأن كلمة « التفاعل » قد وردت خطأ وعلى سبيل استعمال التعابير العامة .

و - وأخيرا ، أظن ان الاخوة السعوديين قد ظلموا كثيرا في مقال الاخ الطيبي - ولا أدري عنهم في فرانكفورت - ولكن أعرف انهم ليسوا كلهم - ولا حتى أكثرهم - من أولاد العائلات الملكية والإقطاعية (ثم الى أي حد قد برزت قضية الإقطاعية في السعودية ؟) وان

(٥) وأتكلم عن عدم أهمية دراستها - من جانب طالب ليست في اختصاصه - وليس عن عدم ضرورة وجودها - كأرضية .

هذا الشهر

ثورة « ماو » الثقافية

أشمل وأعمق ما كتب عن

الثورة الثقافية المعاصرة في الصين

بقلم

البرتو مورافيا

ترجمة وحيد النقاش

منشورات دار الآداب

(٤) وكمن منا من درسوا اختصاصات هامة في حد ذاتها ، وعندما عادوا لوطانهم تشردوا في الشوارع أو أصبحوا موظفين إداريين .

مذكرات مالكولم X

زعيم الزنوج المسلمين في اميركا

في نيسان ١٩٦٥ ، اغتيل مالكولم X زعيم الزنوج المسلمين في اميركا . وقد كان وسيبقى واحدا من اشجع زعماء الحركة الزنوجية في اميركا واكثرهم اصالة وابعدهم شهرة . وقبل ان يقتل بعدة اشهر (وكان يتوقع ذلك) املى على الصحفي ((الكس هالاي)) سيرته الذاتية التي هي اعجب سيرة لزعيم !

ذلك ان مالكولم لا يخفي في سيرته شيئا من اسرار حياته ، بل يتحدث بكل صدق عن شبابه في الكوخ الذي كان يعيش فيه في حي ((هارلم)) حيث كان يتعاطى المخدرات والخمر ويمارس السرقة والسلب ويعيش عيشة الانطلال . وفي السجن الذي قاده اليه اعماله اللصوية ، اكتشف فجأة السقوط الذي يعيش فيه ويعيش فيه كذلك كل افراد شعبه الزنوج . وهناك اعتنق الاسلام وانضم الى ((امة الاسلام)) ليكرس حياته كلها فيما بعد لمقاومة ((الشیطان الابيض)) المسؤول عن سقوط الزنوج في اميركا .

ويتحدث مالكولم X في مذكراته الرائعة عن حياة السود ومشاكلهم والتميز العنصري الذي يمارسه عليهم البيض من الاميركيين ، وعن تمردهم وثورتهم التي نشاهد اليوم بعض مظاهرها في عدد من مدن اميركا الكبرى ، ويحلل في نفاذ وعمق الظروف السياسية والنفسية التي يعيش فيها الزنوج الاميركيون ، وعن ايمانه بالاسلام كدين يحارب التمييز ويدعو الى الاخوة الحقيقية بين الشعوب والامم .

وقد وصف روبرت كندي هذا الزعيم بأنه الوحيد بين زعماء الزنوج الاميركيين الذي يملك ((مغنطيسية)) عجيبة !

مذكرات رائعة مؤثرة عن حياة مضطربة عجيبة لرجل عبقرى يعتبر شاهدا على فترة خطيرة من تاريخ الزنوج الاميركيين الذين يكافحون من اجل تحريرهم ، ويقفون بصلاب في وجه سياسة اميركا المخادعة .

صدر حديثا - الثمن ٥٥٠ ق.ل

وضعهم ليس أسوأ من وضع بقية زملانهم العرب ، رغم المغريات المتوفرة لهم - لاسباب في جنورها سياحية - أكثر من غيرهم .
ومهما يكن ، فأكبر ان المقال يحتوي على نقاط ايجابية هامة ، قد لاحظها القارئ دون شك ، كما ان سلامة النية تبدو واضحة في العرض ، وكثير من الاخطاء التي وردت انما هي نتيجة نوعية معينة من التفكير السائد في هذه الحقبة لدينا .

نبيل مهاني

روما

ملاحظات حول مقالين

بعد ان قرأت كلمة الاستاذ محيي الدين اسماعيل (العدد الثامن ، آب ١٩٦٨ من الآداب) تحت عنوان « مع العربية في عراقها » ففرز الى ذهني سؤال مباشر : « هل قرأ الاستاذ اسماعيل مقالة الاستاذ عبد الحق فاضل المنشورة في العدد السابع ، تموز ١٩٦٨ ، تحت عنوان « العرب اول الفلكيين » ؟ »

ان عنوان مقالة الاستاذ فاضل مرآة لموضوعها . فهو يقدم لنا ما لديه من حجج وادلة لغوية متصلة بالتاريخ ، تؤكد ان العرب هم اول الفلكيين . والذي يريد بهذا هو : « ان سكان العربية (الجزيرة العربية) قد كانوا على درجة فائقة من الاهتمام بمراقبة النجوم والعلم بحركاتها المتشابهة ومواقبتها الدورية منذ العهود الحجرية المجهولة . . قبل عهود التنوين ، وقبل اختراع الكتابة ، وقبل ان يتحضر النيليون والرافديون بالسوف السنين . . اي منذ نحو عشرة آلاف سنة ان لم نقل أكثر » .

فاذا كان الاستاذ اسماعيل قد قرأ المقالة المذكورة جميعها فلا بد وانه قد فهم ما يراد بها . لذلك ، يكون خذلانا عليه ان يعلق كاتباً : « واني ارى ، ان الالفاظ التي اعتمدها الاستاذ فاضل ليست ذات دلالة حاسمة على اسبقية اللغة العربية وحضارة العرب على اللغات والحضارات الاخرى » . فمن المعلوم ان مقالة الاستاذ فاضل لا تبحث في هذين الموضوعين أو في أحدهما .

واذا كان الاستاذ اسماعيل متأثراً بعنوان كتاب العقاد « الحضارة العربية اسبق من الحضارتين العبرية واليونانية » فان هذا لا يعطيه الحق حتى يتهم مقالة الاستاذ فاضل بأنها : « محض دراسات مترفة تثيرها احساس الفرو ، لكي تكفي بالقول ان اللغة العربية اسبق من اللغات الاخرى » .

ويرى الاستاذ اسماعيل ان الالفاظ التي قدمها الاستاذ فاضل ، ليست ادلة حاسمة في الموضوع : « فهي محض امثلة على الالفاظ المستعارة من العربية في اللغات الاخرى » . وفي الحقيقة ان الاصول العربية التي اوردتها الاستاذ حافظ ليست امثلة على الالفاظ المستعارة من العربية فحسب ، بل انها براهين اساسية تعتمد على التاريخ منذ الهجرات الآرية والسامية من الجزيرة العربية أي منذ عشرة آلاف سنة تقريبا . وهي تؤكد اسبقية العرب في ميدان الفلك وأولويتهم .

ملاحظة أخيرة أود اضافتها هنا ، وهي ان مقالة الاستاذ فاضل تعدد في مضمونها موضوعاً واحداً لا تحيد عنه . بينما لا تخرج كلمة الاستاذ اسماعيل عن كونها :

اولا - تعين عناصر خاطئة لموضوع متكامل .

ثانيا - « طائفة من الافكار والشذرات الموزعة » لا يعيها أبداً ان تدرج في جدول لاصول وصلات المفردات اللغوية بدلا من ان تكون امتداداً لمقالة الاستاذ عبد الحق فاضل .

الياس اسير